656678 ـ هل تشمل الشفاعة يوم القيامة الذنوب المتعلقة بحقوق الناس؟

السؤال

في يوم القيامة، ستتحقق شفاعةُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، هل هي خاصةٌ بالذنوب المتعلقة بحقوق الله تعالى فقط، أم تشمل أيضًا الذنوب المتعلقة بحقوق العباد؟ هل هناك ذنبٌ غيرُ الشرك لا تنالُه شفاعةُ النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقبله الله تعالى الأرحم الراحم؟ وإذا كانت الشفاعةُ لكل مسلم، فمن الذي يدخل النار؟ وهناك أحاديثُ يُذكر فيها أن الله يُخرِج آخرَ شخص من النار برحمته ومشيئته، فيقول: (حوِّل وجهي عن النار)؛ فإذا كانت الشفاعةُ لكل المسلمين، أليس هذا الحديثُ يُخالِف ذلك؟ هل هناك ذنبٌ في الإسلام غيرُ الشرك، ثِقَلُه بحيث يدخل صاحبه النارَ فلا يخرج منها أبدًا، أو يظل فيها شبهَ الأبد، حتى لو كان مؤمنًا صادقًا تاب بعد ذنوبٍ متكررةٍ تتعلق بحقوق العباد وحقوق الله معًا؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا:

من عقيدة أهل السنة والجماعة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في أصحاب الذنوب من أمته.

روى الإمام أحمد في "المسند" (20 / 439)، وأبو داود (4739)، وغيرهم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي).

ورواه أيضا الترمذي (2435)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه.

والأحاديث المشهورة الصحيحة في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، تتحدث عن شفاعته صلى الله عليه وسلم في هؤلاء المذنبين بإخراجهم من النار بعد أن يدخلوها.

ومن أشهر ما ورد في هذا:

ما رواه الإمام البخاري (6566): عَن عِمْرَان بْن حُصَيْنٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ).

وما رواه البخاري (6565)، ومسلم (193): عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:

(يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا ... فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ، فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ، حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ).

وَكَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ عِنْدَ هَذَا: أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"فقد تضمّنت هذه الأحاديث خمسة أنواع من الشّفاعة ...

النّوع الرابع: الشّفاعة في إخراج قوم من أهل التّوحيد من النّار....

ويبقى نوعان يذكرهما كثير من النّاس:

أحدهما: في قوم استوجبوا النّار، فيشفع فيهم أن لا يدخلوها. وهذا النّوع لم أقف إلى الآن على حديث يدلّ عليه، وأكثر الأحاديث صريحة في أنّ الشّفاعة في أهل التّوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار، وأمّا أن يشفع فيهم قبل الدّخول فلا يدخلون: فلم أظفر فيه بنصّ" انتهى. "تهذيب سنن أبي داود" (3 / 313).

فقد دلت هذه النصوص على أن من العصاة المسلمين من يدخل النار، ثم يخرج منها بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك جواب: "وإذا كانت الشفاعةُ لكل مسلم، فمن الذي يدخل النار"= فيقال: ليس معنى الشفاعة: أنها تمنع المشفوع فيه من دخول النار أصلا؛ فإن النار لا بد أن يدخلها من كل صنف من العصاة من يدخلها، ثم يخرج منها عصاة الموحدين، حتى لا يبقى فيها أحد من الموحدين، ولا يبقى فيها إلا أهلها الذين هم أهلها؛ المخلدون فيها من الكفار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"ليس كلّ المسلمين يدخلون الجنّة بلا عذاب، بل أهل الوعيد يدخلون النّار، ويمكثون فيها ما شاء الله، مع كونهم ليسوا كفّارا، فالرّجل الذي معه شيء من الإيمان، وله كبائر: قد يدخل النّار، ثمّ يخرج منها؛ إمّا بشفاعة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإمّا بغير ذلك؛ كما قال صلّى الله عليه وسلّم (شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي)، وكما في الصّحيح أنّه قال: (أَخْرِج مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ) ..." انتهى. "مجموع الفتاوى" (7 / 679).

ثانيا:

لا يوجد نص ينص على أن أصحاب المظالم لا تنالهم شفاعته صلى الله عليه وسلم؛ فالمسلم المعتدي إذا عوقب بالنار ابتداء،

أو اقتص منه المظلوم، فاستحق النار، كمثل ما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عند مسلم (2581)؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْه، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)= فهذا الصنف من العصاة: قد تدركه شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيخرج من النار، لعموم واطلاق الحديث في الشفاعة في الموحدين.

روى الإمام البخاري (6570): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: (لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"وفي قوله في حديث أبي هريرة: (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، سِرّ من أسرار التوحيد، وهو أن الشفاعة إنما تُنال بتجريد التوحيد، فمن كان أكملَ توحيدا، كان أحرى بالشفاعة، لا أنها تُنال بالشرك بالشفيع، كما عليه أكثر المشركين" انتهى. "تهذيب سنن أبي داود" (3 / 314).

ثالثا:

من أهل الإسلام من لا تدركه شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، كما يشير ظاهر حديث أنس السابق، لكن تدركهم رحمة الله الرحيم الكريم ويخرجهم منها برحمته وكرمه.

ففي رواية الحسن لحديث أنس في الشفاعة، رواه البخاري (7510)، ومسلم (193)، ففيه، واللفظ لمسلم: (ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ ـ أَوْ قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ ـ وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي: لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

سُئل الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى:

"من الذين لا تشملهم الشّفاعة؟

فأجاب:

الكفّار، ويبقى بقيّة من العصاة ما تشملهم الشّفاعات كلّها، يخرجهم الله بغير شفاعة؛ فضلا منه سبحانه" انتهى. من "فتاوى

الدروس" على "موقع الشيخ".

رابعا:

اهل الإيمان لا يخلد أحد منهم في النار أبدا، وهذا بإجماع أهل السنة.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى:

"وأجمع أهل السّنة أيضا على أنّه لا يبقى فيها مؤمن ولا يخلّد فيها إلا كافر جاحد، فاعلمه" انتهى. "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" (2 / 920).

وإن طال مكث بعض المذنبين منهم في النار، فسيخرجون منها بشفاعة الشافعين من الأنبياء والصالحين وبرحمة رب العالمين.

روى الإمام مسلم (93): عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: (أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْمُوجِبَتَانِ؟

فَقَالَ: مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ).

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله تعالى:

"و(قوله: مَن مَاتَ لَا يُشرِكُ بِاللهِ شَيئًا، دَخَلَ الجَنَّةَ) أي: من مات لا يتّخذ معه شريكا في الإلهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة.

ومن المعلوم من الشّرع المجمع عليه من أهل السّنّة: أنّ من مات على ذلك، فلا بدّ له من دخول الجنّة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة، وأنّ من مات على الشرك لا يدخل الجنّة، ولا يناله من الله تعالى رحمة، ويخلد في النّار أبد الآباد، من غير انقطاع عذاب، ولا تصرّم آباد، وهذا معلوم ضروريٌ من الدّين، مجمع عليه من المسلمين" انتهى. "المفهم" (1 / 290).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"ومذهب أهل السنة والجماعة: أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب، وبهذا الثواب" انتهى. "مجموع الفتاوى" (7 / 679).

وما ورد من خلود بعض المذنبين، كما في قوله تعالى:

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا النساء (93)= فهذا محمول

على طول المكث في العذاب، لكن سيأتي عليهم وقت يخرجون منها ويدخلون الجنة.

قال ابن الملقن رحمه الله تعالى:

"فإن عارض حديثَ الشّفاعة معارضٌ بأحاديث الوعيد، كقوله: (وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ عُذب بها عُذِّبَ بِها فِي نارِ جَهَنَّمَ أبدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ...) الحديث، ونحوه من الأخبار؟

= فالجواب: بأنّه لا تعارض، لجواز أن يكون الله أنفذ عليه وعيده بأن خلّده في النّار أكثر من مدّة بقاء من خرج بالشّفاعة، ثم يخرج من النّار بعد ذلك، لشفاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما في قلبه من الإيمان المنافي للكفر؛ لأنّ الخلود الأبدي الدّائم إنّما يكون في الكفّار الجاحدين، وما جاء في كتاب الله من ذكر الخلود للمؤمنين؛ كقوله: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدً فِيهَا [النساء: 93]، فإنّما يراد بالتّخليد تطويل المدّة عليه في العذاب ولا يقتضي التّأبيد، كما يقتضي خلود الكافرين" انتهى. "التوضيح" (33 / 266 ـ 267).

الخلاصة:

نصوص الوحي في أحوال عصاة المؤمنين في الآخرة متناسقة ومتوافقة ولا اختلاف بينها، فقد بيّنت أن جمعا من عصاة المؤمنين سيدخلون النار ويتفاوت مكثهم فيها، وبعضهم قد يطول مكثهم، لكن يأتي عليهم وقت يخرجون منها بشفاعة من يأذن الله بشفاعتهم من الأنبياء والصالحين، وكذا يخرجون برحمة الله رب العالمين، ولا يبقى في النار إلا غير المؤمنين، هذا معتقد أهل السنة والجماعة الذي جاء به الوحي ومضى عليه السلف الصالح.

والله أعلم.